العراقية
المجلات الاكاديمية العلمية
IRAQI Academic Scientific Journals
Al-Itqan Journal of Humanities
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/575
ISSN: 3105-1073 (OnIne)
المجلة معتمدة بالترقيات العلمية حسب كتاب وزارة التعليم العراقية (46404-1410) في 2026/4/27

التطور الدلالي في شعر شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام

م.م. محمد رضا كاظم العامري
وزارة التربية، المديرية العامة لتربية الكرخ الثانية

Semantic development in the poetry of Arab women poets in the pre-Islamic and Islamic eras

Mohammed Ridha Kadhim Al-Ameri
Ministry of Education, General Directorate of Education of Al-Karkh Second, Baghdad, Iraq
mohammedridhakadhimalameri@gmail.com

الملخص

يتناول البحث المعنون بـ(التطور الدلالي في شعر شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام) مظاهر التطور الدلالي عند الشاعرات في الجاهلية وكيف كانت الشاعرة قادرة على الإلمام بطبيعة التشكيل الثقافي الذي يفصح عن طبيعة الاستعمال لمفردات اللغة وما كانت عليه الصورة الشعرية وما ظهر من تغيرات في عصر الإسلام من ناحية السمات الغالبة على النصوص الشعرية، ذلك أنّ لكل عصر ثقافته وطبيعة تذوق شعرية خاصة تنبع من الحاجة للتكوين الثقافي عبر معطيات التطور الدلالي المرتبط بالظروف التاريخية وطبيعة العصر كذلك.

كلمات مفتاحية: التطور الدلالي، شاعرات العرب، الجاهلية، الإسلام.

Abstract

This research, titled "Semantic Development in the Poetry of Arab Women Poets in the Pre-Islamic and Islamic Eras," examines the manifestations of semantic development among pre-Islamic female poets. It explores how these poets were able to grasp the nature of the cultural formation that reveals the nature of their use of language and the characteristics of their poetic imagery. The research also examines the changes that emerged in the Islamic era in terms of the dominant features of poetic texts. Each era has its own culture and a unique poetic sensibility stemming from the need for cultural formation through the data of semantic development linked to historical circumstances and the nature of the era itself.

Keywords: Semantic development, Arab women poets, pre-Islamic era, Islamic era.

مقدمة

يُشكّل التطور الدلالي أهمية في الدرس اللغويّ ، إلا أنّ ما يميز التطور الدلالي هو التركيز على بيان المعنى للصورة على اختلاف أنواعها، ذلك أنّ التطور الدلالي يهدف إلى تحليل النص وتفكيك شفراته ومحتواه، وعليه البحث عن الرؤية الحقيقية للقصيدة. ولما كان علم الدلالة يشكّل قمة الدراسات اللغوية، فإن دراسة المستوى الدلالي تنبع من الأهمية التي تتركها سيمائية الصورة وإشاريتها. "ومن هنا كانت الصورة دائماً غير واقعة وإن كانت منتزعة من الواقع، لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها لعالم الواقع، ومن ثم يبدو لنا في كثير من الأحيان أنّ الشاعر أو الفنان يعبث في صوره بالطبيعة وبالأشياء الواقعة"[1]ودراسة التطور الدلالي تفضي إلى تحديد المستوى الدلالي والذي هو جزء من علم اللغة، أو مستوى من مستوياته، فدلالة الصورة نابعة من السياق الذي تتشكّل خلاله، فالصورة هي عماد التجربة الشعورية على اختلاف تشكلاتها وأنواعها" فالشعر إذن ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان سواء أكانت منظورة أم مستحضرة في الذهن، وهو بالنسبة للقارئ وسيلة لاستحضار هذه الأشكال والألوان في نسق خاص...إنما هو يستهلك كل الأشياء الواقعة وكل الصفات سواء أكانت مرئية أم غير مرئية"[2]

أهمية البحث: تنبع أهمية البحث من عدد من النقاط، لعلّ من أهمها:

- التعرّف على أشكال التطور انطلاقاً من التماس خصوصية التجربة الشعرية عند شاعرات من الجاهلية فيما يظهر في مناسبة التصوير الشعري لطبيعة العصر.
- بيان طريقة تشكيل الكتابة من ناحية الاستعمال الدلالي في الألفاظ ودلالاتها المرتبطة بتحديد مناسب لما كان رائجاً في استخدامه في ذلك العصر.

أهداف البحث:

- بيان مدى التطور الذي طرأ على أشكال الصورة ولا سيما أنّ الكتابة في الجاهلية كانت في استخدام مفردات لا نجدها في العصور التالية.
- الكشف عن التطور الذي طرأ على ألفاظ القصيدة عند شاعرات الإسلام فنجد تركيز الجاهليات على ألفاظ الحرب والثأر بينما الشاعرة في الإسلام تركز على ألفاظ الإسلامية.

منهج البحث:

يعتمد البحث على معطيات المنهج الوصفي والتحليلي من خلال التناول للأداء اللغوي في نصوص الشاعرات واستخدام معطيات المنهج التحليلي الإجرائي في رصد أشكال التغيير الدلالي عند كل شاعرة.

التمهيد: مفهوم التطور الدلالي

يفرض عامل التطور الدلالي ما تعكسه حضارة الأمة في نواحي الاقتصاد والاجتماع والثقافة؛ فما شاع في العصور السابقة يكشف عن خاصية التطور الدلالي، والتغيّر الدلالي هو الذي يصيب دلالات الألفاظ بمرور الزمن، وتبدّل الحياة الإنسانية، فينقلها من طور إلى طور آخر[3]، وقد أسهمت العوامل الاجتماعية التاريخية في بلورة مفهوم التطور الدلالي ولاسيما ما نلاحظه فيما طرأ على حياة الإنسان الجاهلي في مجال الأدب حيث انتقالات الدلالة من الحسية إلى الدلالة التجريدية، "وقد تمثّل له بالإنسان الأول الذي بدأ بتسمية العالم الخارجي مع تركيزه على الدلالات المنظورة الحسية، ومع رقي عقله تدريجياً انتقل إلى التجريد"[4]ذلك أنَّ طرح التطور الدلالي عاين مفهوم التجريد كفهم قائم على أنَّ المجرّدات "لا تتناول المفردات أو الأعمال الحركية أو المتصلة بالحواس الظاهرة، وإنما تعبّر عن الحالات النفسية والعقلية ومفرداتها من الشعور والانفعال"[5]. وقد فرض طبيعة العامل النفسي ما أظهر خاصية التطور الدلالي بما يخضع خلاله لثقافة المجتمع، ونمط تفكيره وحسّه التربوي، "فيُعدّل اللفظ ذي الدلالة المكروهة بآخر مستحب لدى المتلقي ويستحسنها الذوق العام، ويُسمَّى عند علماء اللغة بـ (التلطف) وهو إبدال الكلمة الحادة بالكلمة الأقل حدة"[6] .فقد تعددت التي تحدّد ظاهرة التطور الدلالي، بما يؤكد معنى انتقال الكلمة من معنى إلى آخر، أو إضافة معنى جديد إلى معناها الأصلي "دون أن تترك الأول فتتعدّد بذلك المعاني التي تدلُّ عليها وتستعمل في أي واحد منها على حسب الأحوال والمقامات"[7]وهو ما يفسّر وفق ذلك أنَّ التطور يُقصد به انتقال المعنى من شكل لآخر عبر توالي العصور، وبالتالي إتاحة ما يدلُّ على ماهية التطور الدلالي، "إنَّ التطور الدلالي يعبّر عن التغيّر الذي يصيب دلالة لفظ ما عبر الزمن، إذ يكتسب اللفظ معنى جديداً قد يُضاف إلى المعاني القديمة له، أو يحل مكانه، والمؤمن بحياة اللغة ومسايرتها للزمن ينظر إلى هذا التطور على أنه ظاهرة طبيعية دعت إليها الضرورة الملحة"[8] .ونظراً لما يشكّله التطور الدلالي بمصطلحاته المتنوعةعُدّ ظاهرة لغوية لها أساسها كما في توسيع المعنى أو تعميم الدلالة، مما يعني الانتقال بالدلالة من الخاص إلى العام، حيث يحدث ذلك عند تعدد المدلولات للدال الواحد بشكل أكثر مما كانت عليه في السابق، ومنها كلمة (عمّ) التي تعني أخ الأب ، يطلقها الصغير على كل من اجتمعت فيه صفتا الذكورة والبلوغة"[9]كما أنَّ التطور الدلالي أعطى أهمية انتقال المعنى ولاسيما عندما يتساوى المعنيان في التخصيص والتعميم ، فيغيّر المتكلم لسبب ما وجهة استعمال اللفظ، فينتقل مثلاً من المحل إلى الحال، أو من المسبب إلى السبب ، أو من العلاقة الدالة إلى الشيء المدلول عليه"[10]

المبحث الأول: آليات التطور الدلالي في شعر شاعرات الجاهلية عند عدد من الشاعرات

إنَّ النظر في أشكال التطور الدلالي عند الشاعرات في الجاهلية يشير إلى أنَّ شعرهن كان قد شهد التحوّل الفني في كتابة الشعر من حيث غنى القصيدة بالدلالات الرمزية التشبيهية على حدّ سواء، ولاسيما ما ظهر في نتاج الشاعرة الخنساء، حيث تُعدُّ الخنساء من الشاعرات البارزات اللواتي أظهرن التفوّق والرقي، فجسّدت شاعريتها الخصبة بتصوير تجربتها الذاتية في حلّة متميزة من أجمل ما نُظم من قصائد في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، ولم تستطع أيّ شاعرة أن تتفوق عليها ولاسيما في غرض الرثاء الذي أصبح الغرض الشعري الأساس الذي نظمت فيه[11] .

لذلك إنَّ قراءة شعر الجاهليات يعكس مجمل الخصائص الفنية التي اكتسبها التشكيل النصي، حيث "يتغير المعنى لأننا نعطي اسماً عن عمد لمفهوم ما من أجل غايات إدراكية أو تعبيرية ، إننا نسمّي الأشياء ويتغير المعنى لأنَّ إحدى المشتركات الثانوية (معنى سياقي، قيمة تعبيرية، قيمة اجتماعية) تنزلق تدريجياً إلى المعنى الأساسي وتحل محله فيتطور المعنى"[12]، ومما يعكس جمالية التطور الدلالي أنَّ الشاعرة (الخنساء) تعبّر عن الفكرة والموضوع في القصيدة بما يوفّر خاصية التطور الدلالي بالتركيز على معنى الترادف والاشتراك اللفظي والحقل الدلالي كذلك، ومن ذلك ما جاء في قولها متحدثة عن سبب شقائها متحدثة عن حسن فضائل أخيها في تعبيرها:

تَقولُ نِساءٌ شِبتِ مِن غَيرِ كِبرَةٍ وَأَيسَرُ مِمّا قَد لَقيتُ يُشيبُ
أَقولُ أَبا حَسّانَ لا العَيشُ طَيِّبٌ وَكَيفَ وَقَد أُفرِدتُ مِنكَ يَطيبُ
فَتى السِنِّ كَهلُ الحِلمِ لا مُتَسَرِّعٌ وَلا جامِدٌ جَعدُ اليَدَينِ جَديبُ
أَخو الفَضلِ لا باغٍ عَلَيهِ لِفَضلِهِ وَلا هُوَ خَرِقٌ في الوُجوهِ قَطوبُ[13]

إنَّ ما يغلب على تشكيل النص السابق أنَّ الشاعرة واعية للأداء اللغوي المعبّر عن فخرها ومدحها لخصال أخيها، فالصفات الواردة فيها تحفيز لمعنى الترادف اللفظي (كهل الحلم، لا متسرّع، لا جامد، جعد اليدين جديب، أخو الفضل، وَلا هُوَ خَرِقٌ في الوُجوهِ) فالاشتراك اللفظي والترادف في هذه العبارات يعاين قدرة الشاعر على تطوير اللغة، ذلك أنَّ كل وحدة تطورية على مستوى الترادف هي وحدة شكلية سياقية، فالألفاظ الوصفية الواردة تؤكد انتماءها إلى حقل دلالي واحدل (الفخ بالصفات والمزايا)، "فالتضمين في المترادفات أو الألفاظ المتقاربة ، فقد يكون في كل لفظ دلالات فرعية إضافية إلى دلالتها الأصلية، كما أنَّ كل لفظ يحوي غالباً شحنات دلالية تختلف تماماً عمّا يحويها غيرها"[14].وكما يظهر أنَّ كل مفردة في نص الخنساء مرادفاً من ناحية الإشارة إلى أهمية ما تودعه الشاعرة في فضائل المقصود والمخصوص في خطابها، ومن جمالية الأداء اللغوي الكاشف عن نواح التطور الدلالي ما جاء في قول الخنساء مركزة على الحفاظ على وحدة الحقل الدلالي المعجمي كما في الوحدة المشكّلة لألفاظ الحرب في قولها:

وتسعى حينَ تشتجرُ العوالي بكأسِ المَوْتِ ساعَةَ مُصْطَلاها
محافظةً ومحميةً اذا ما نبا بالقومِ منْ جزعٍ لظاها
فتترُكُها قدِ اضطَرَمَتْ بطَعْنٍ تَضَمّنَهُ إذا اخْتَلَفَتْ كُلاها[15]

فكما نلاحظ إنَّ الشاعرة تحفّز العناصر اللفظية الدالة على ألفاظ الحرب ومتعلقاتها، ولاسيما أنَّ الحرب قد شكّلت في العصر الجاهلي وتعكس بدورها طبيعة الحياة الاجتماعية التي عاشتها العرب، تلك الحياة التي تقوم على الغارات والمناورات والغزو والثأر، فتظهر الشاعرة عبر رصد الحقل الدلالي المشار إليه عبر ألفاظ الحرب مثل (جزع لظاها، مُصْطَلاها، بطَعْنٍ) مشيرة إلى أنَّ إشعال نار الحرب تحتاج إلى قلب قوي وعزيمة على تحقيق الآمال في النصر، وفي هذا النوع من التعبير يظهر السياق الدلالي قائماً على إيراد ما يتعلّق بتشكيل القرائن سواء القرائن السياقية أو القرائن اللفظية، "فالأولى تُفهم من السياق واللفظية هي الكلمات التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للوحدة المعجمية، وتسمّى الثانية (المدرّجات) وهي الكلمات التي تؤسس فضاء ذهنياً جديداً، فالمعاني تشبه السلّم تنتقل من كلمة إلى أخرى تصاعدياً أو تنازلياً"[16]، وبذلك إنَّ قدرة الشاعرة على إظهار أهمية ما يقع من ارتباط الألفاظ ذات الحقل الدلالي المعجمي كحقل الألفاظ الدالة على الحرب ما يظهر قدرة الشاعر الجاهلي على التماس أهمية المعاني ذات البناء الدلالي للقرائن اللفظية الواردة.فكثيراً ما نجد إظهار الصورة الشعرية وفق تطوّر منحاه اللغوي، ولاسيما ما يظهر عند الخنساء في ذكر أسماء الأعلام الذين كانوا ذوات الأثر البالغ في التعبير عن تجربتها الشعورية، ومن ذلك ما جاء في قولها:

أبكي أَبي عَمراً بِعَينٍ غَزيرَةٍ قَليلٍ إِذا نامَ الخَلِيُّ هُجودُها
وَصِنوَيَّ لا أَنسى مُعاوِيَةَ الَّذي لَهُ مِن سَراةِ الحَرَّتَينِ وُفودُها
وَصَخراً وَمَن ذا مِثلُ صَخرٍ إِذا غَدا بساهمة الأبصار قب يَقودُها[17]

إنَّ الشاعرة الخنساء من الشاعرات المخضرمات اللواتي عشن عصرين بين الجاهلة والإسلام ، وما يهمنا بلورة ملامح التطور الدلالي الذي قدمته شاعرات العرب في إظهار أجمل مواضع القصائد والتركيز على ألفاظ الحقول الدلالية التي تصنّف ألفاظ الحرب والسلاح والمعارك، وهنا في النص السابق تكثّف الشاعرة من حضور ألفاظ الحقل الدلالي الواحدا (أبكي، صخراً ، صخر، الحَرَّتَينِ، ساهمة الأنصار) فجميع الألفاظ والتراكيب توحي بما كانت عليه الشاعرة من احتراق وتوجّع على ما آل إليه حال من تحبه من أخوتها وأقاربها .ومن الشاعرات الجاهليات اللواتي برعن في تطوير الدلالة اللفظية والمعنوية ماجاء في نتاج الشاعرة هند بنت النعمان، ومن ذلك ما يظهر في توصيفها لحالة الانتصار في عصرها قائلة:

حمتني بنو شيان والحيُّ تغلبٌ بقبِّ المذاكي وسيوف القواضبِ
نجوتُ بعمرو من مطامع كيسرٍ وعدوٍ شهابٍ يوم روع المقانبِ
ولله مولاهم جدابةُ نِعمَ ما يدبرُ في كلِّ الأمورِ اللوازبِ
بأسمرَ عسَّالٍ وأبيضَ قاطعٍ وأكمت ورديّ وعين مراقبِ
وكم فرجٍ منه علينا بغارة وكم حملةٍ يوم التقاء الكتائب[18]

تعالج الشاعرة عبر هذه الصورة الوصفية حالة قائمة على عكس خاصية النسق الثقافي في رصد حركة المجتمع فيما كان عليه الناس في الجاهلية من الحمية والتأهّب والاستعداد للغارات المتوالية ، ولا يُخفى ما يظهر في قدرتها على إظهار ملامح الصورة الشعرية المنسجمة مع خصائص البوح الرقيق ، فتأتي الألفاظ موضّحة للحالة التي تصفها وعاكسة خاصية الأداء اللغوي للألفاظ ذات الأثر الانسجامي مع طابع العصر (الحي، تغلب، عدو شهاب، نجوت بعمرو، مطامع كيسر، بأسمر عسّال)كما تتبلور خاصية العلاقات الدلالية من خلال وضع الوحدات المعجمية في حقول أو مجالات دلالية، فالحقل الدلالي هو الإطار الذي ينتظم فيه عدد من الوحدات المعجمية المرتبطة فيما بينها بمفهوم مشترك[19].ولطالما كان الشاعر معبّراً عن خواص النسقية الثقافية، فإنَّ الشاعرة الجاهلية استطاعت أن تظهر مظاهر التطور الدلالي من خلال التركيز على إبراز خاصية العلاقات بين الدال والمدلول، وما يمكن أن نلتمسه في الاشتراك الدلالي لعكس علامة لغوية واحدة، ومن جمالية التشكيل اللغوي في شعر الشاعرة ما جاء في قولها مركزة على وصف حركة الرماح الصوارم في قولها:

حافظ على الحسب النفيس الأرفع بمدججين مع الرماحِ الشرّع
وصوارم هندية مصقولة بسواعدٍ موصولةِ لم تُمنعِ
وسلاهب من خيلكم معروفة بالسبقِ عاديةٍ بكل سميذعِ
واليوم يومُ الفصل منك ومنهم فاصبرْ لكل شديدة لم تدفعِ
يا عمرو يا عمرو الكفاحَ لدى الوغى يا ليثَ غاب في اجتماع الجميع
أظهر وفاء يا فتى وعزيمةً أتضيع مجداً كان غير مضيّع[20]

تتجه الشاعرة هند نحو توصيف الانفعال المتعالي عبر أسلوبية الطلب (حافظ على الحسب) ذلك أنَّ استعمال الأساليب الإنشائية (أسلوب الأمر) الذي يُعلي من أهمية الانفعال، الذي يعكس علاقة الأنا الشاعرة بالمخصوص في توجيه الصورة ، كما أنَّ الألفاظ الواردة تثير أهمية التحفيز للعناصر اللغوية التي يمكن تلقيها في انتمائها إلى حقل دلالي واحد (الرماح، صوارم هندية، مصقولة ، الوغى ، ليث غاب) فكل مشهد من هذه المشاهد التعبيرية تعكس غنى الأداء اللغوي في المشترك اللفظي وتحفيز المترادفات، "فتطور الدلالة ظاهرة شائعة في كل اللغات يلمها كل دارس مراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية، والتطور الدلالي صورة عاكسة لمجتمع يزخر بفكره وثقافته وبعلومه واستشراقيته الثقافية.."[21].ومن الشاعرات الجاهليات اللواتي تركن أثراً مهماً في بناء الشعر وتأثيره في الناس ما ظهر في شعر الجليلة بنت مرة في إحدى قصائدها تظهر فيه الرد والأداء اللغوي المتقن ، فقد كانت لغة الشاعرات الجاهليات فصيحة لا مجال للخلط فيها عن سواها، ومن ذلك ما جاء في قولها مخاطبةً:

يا ابْنَةَ الأقوام إنْ لُمْتِ فَلا تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي
فَإذا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ الَّذِي عندها اللَّوْمَ فَلُومِي واعْذُلِي[22]

تستخدم الشاعرة جليلة بنت مرة أسلوب لغوي يقوم على شيوع هذه الأساليب المتطورة لغوياً عبر نداء القريب في قولها (يا ابنة الأقوام) ، فقد كان شائعاً نداء الشاعر الجاهلي أحدهم بقوله (يا ابن أو ابنة الأقوام)، مخصصة الإشارة إلى القرابة في النسب فهما أبناء عمومة، وبذلك تسهم الشاعرة عبد آلية النداء اللغوي في جلب الاستعطاف والتذكير لما جال بينهما من علاقة ودية وإن كانت توجّه لوماً إليها، بما يعزّز تعالق الأثر الوحداني مع الفكرة التعبيرية المنجرة عبر الأفعال اللغوية، كما أن قدرة الشاعرة الجاهلية على الإتيان بالصور البلاغية التشبيهية ما يشير إلى أنَّ الشعر كان قد بلغ أوجده في العصر الجاهلي من ناحية المتانة والرصانة اللغوية، فتظهر القصيدة مليئة بالقوة اللغوية عبر العناصر الواردة في إظهار تماسك النص، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعرة جليلة بنت مرة واصفة هول المشهد في قولها:

فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلى ضنّي بِهِ قاطِعٌ ظَهْرِي وَمُدْنٍ أَجَلِي
لَوْ بِعَيْنٍ فُدِيَتْ عَيْنِي سِوى أُخْتِها وانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْفِلِ[23]

تختار الشاعرة من الألفاظ ما يوقع في النفس حول الحادثة التي تصفها في قولها (فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلى ضنّي بِهِ) إشارة بليغة إلى شدة التمسّك، ذلك أنَّ الشاعرة تعكس حالة تمسّكها بكل ما هو عزيز غالٍ على نفسها، وتلجأ حينئذ إلى الصورة الاستعارية في قولها (قاطِعٌ ظَهْرِي وَمُذْنٍ أَجَلِي) إشارة إلى رغبتها في تشبيه فعل (جسَّاس) كما في فعل السيف القاطع الذي لا يترك ولا يذر، ذلك أنَّ في فعل الاستعارة ما يشير إلى أنَّ خاصية الدلالة في ذلك العصر كانت قد أخذت اتجاه التحول في استخدام الصورة الاستعارية، "فالاستعارة عملية معقدة تبلور رغبة الشاعر في إعادة خلق الواقع المعيشي وتشكيله من خلال هذه الرؤية الاستعارية، التي تتبدّى فيها أطراف الاستعارة واقعة في إطار الحقيقة المبتغاة من قبل الشاعر"[24].بمعنى إنَّ حضور الاستعارة في نص الجليلة يوفّر اندماج حالة التشكيل الثقافي للأداء اللغوي في اعتياد حالة التعبير اللغوي الحجاجي كما يظهر عن طريق الاستعارة ، بمعنى إنَّ الاستعارة تنبع من تصوّر الشاعر لما يحيط به، ومن رغبته للتعبير عن ذلك وفق ما تتطلبه لحظة التعبير الشعري والمناسبة التي يصدر عنها في ذلك، وكأنَّ الشاعرة أرادت بتوظيف الاستعارة، أن تسعى إلى تقريب المتباعدات لبث روح التآلف بينها والوصول إلى توحيد المتشابهات، لذلك إنَّ حالة التشبيه والاستعارة تبلور تطور الدلالة المستخدمة في نصوص الشاعرات الجاهليات ، كما نجد الجليلة في سبيل إظهار القوة البلاغية عبر عنصر التشبيه في قولها :

يا قَتِيلاً قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعاً مِنْ عَلِ

وَرَمانِي فقده مِنْ كَثَبٍ رِمْيَةَ الْمُصْمَى بِهِ الْمُسْتَأْصَلِ[25]

تصدر الشاعرة جليلة في وصف وقع الحادثة (قتل كليب) فتلجأ مرة أخرى إلى الحجة البلاغية (وَرَمانِي فقده مِنْ كَثَبٍ رِمْيَةَ الْمُصْمَى بِهِ الْمُسْتَأْصَلِ) للدلالة على قرب المقتول من نفسها، "فأسلوب التشبيه ذو ركنين تضمّن فطنة المتلقي إليها فطنته لدلالة الأسلوب، فثمة وضوح وانكشاف يتسم به هذا الأسلوب، وقد ينضاف إلى هذين الركنين رابطان آخران يزيدان الأسلوب وضوحاً، وهما الرابط اللفظي المتمثّل في الأداة، والرابط المعنوي المتمثل في وجه الشبه"[26]، لذلك إنَّ الصورة الناشئة عن أسلوب التشبيه تخلق للمتلقي فضاء جديداً يستطيع من خلاله اكتشاف ما تعكسه الأشياء من معان فريدة لم يكن لتظهر لو أنَّ الخطاب ورد دون تشبيه.

المبحث الثاني: التطور الدلالي في شعر شاعرات الإسلام

لقد ظهرت الشاعرات في الإسلام متممات للأداء اللغوي المتطوّر، ولاسيما أنَّ هناك من الشاعرات من برزن مخضرمات بين العصرين، ومن الشاعرات في الإسلام ما انتشر صيتها (ليلي الأخيلية) بلغت في شهرتها كما عند الشاعرة (الخنساء)، فهي "ليلى بنت حذيفة بن شداد بن كعب بن الرحال بن معاوية، ونسبها إلى جدها معاوية بن عبادة المعروف بالأخيل، والأخيل هذا فارس الهرار، والهرار حصان أعوج كان ركبه في الجاهلية"[27] وكثيراً ما قدمت الدراسات صورتها على أنها من أهم شاعرات العرب المتقدمات في الشعر، أي في عصر صدر الإسلام، "فهي شاعرة عربية عُرفت بجمالها وقوة شخصيتها وفصاحتها وشاعريتها الفذّة ، وكانت قد عُرفت بعشقها المتبادل مع توبة بن الحمير، ولها العديد من قصائد الشعر في العشق والغزل والرثاء، وأغلب رثائها في من عشقته وهو توبة بن الحمير الخفاجي"[28] .فقد أتاح شعر ليلي تلقياً جمالياً يكشف عن التطور الدلالي في اعتماد عناصر وألفاظ الطبيعة ووصف الطيور بما يكشف عن حسن الصورة البلاغية والأداء اللغوي المتطور، ومن ذلك قولها:

مُعاوِيَ لَمْ أَكدْ آتيكَ تَهْوي بِرَحْلي رادَةُ الأَصْلابِ نابُ

قَرِيحُ الظَّهْرِ يَفْرَحُ أَنْ يَراها إذا وَضَعَتْ وِلّيتَها الغُرابُ

تَجُوبُ الأرضَ نَحْوَكَ ما تَأَنَّى إذا ما الأُكْمُ قَنَّعَها السَّرابُ

وكُنْتَ المُرْتَجى وبِكَ اسْتَغاثَتْ لتُنْعِشَها إذا بَخُلَ السَّحابُ[29]

ما يوفّر التطور الدلالي أنَّ الشاعرة دائمة اللجوء إلى جمالية الوصف؛ أي وصفت مفردات الطبيعة المتحركة في صورة الطير (الغراب) بما يساعد على خلق الناحية التشخصية الحيوية التي تكسبها الصورة في أبعادها المتشكّلة، والمعنى أنه إذا أخذت من السن القوة، يفرح الغراب إذا وضعت عنها ، فمن خلال مفردات الطبيعة تخلق حالة الإلفة بين الإنسان والطبيعة المحيطة به، تشكّل ما يشبه الهاجس والأحلام الباطنية والرؤى التي تشكّل كافة تصوّرات الشاعر، فنجد نص الشاعرة يحفل بما يجعل الصورة التعبيرية متحركة الأثر في النفس عن طريق إحياء عناصر الطبيعة، فقد شكّلت الطبيعة وسيلة إدراك مالا يستطاع التعبير عنه بغيره، فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي بديل من شيء يصعب أو يستحيل تناوله في ذاته"[30]إنَّ توظيف الشاعرة لعناصر الطبيعة يُحفّز قدرة الشاعرة على استحضار الصور الوصفية المنجزة لغوياً، ومن ذلك الإنجاز ما جاء في قولها معتمدة وصف الحيوان فيما جاء في صورة (الكلاب) في قولها:

وتصبح بموماة كأن صريفها صريفُ خطاطيف الصرى في المحاور

طوت نفعها عنا كلاب وأسدت بنا أجهليها بين غاوٍ وشاعر
ودوية قفر يحاربها القطا تخطيتها بالناعجات الضوامر[31]

تزخر القصائد في شعر ليلي الأخيلية بما يتيح التماس خاصية التطور الدلالي عبر استنطاق مكونات الطبيعة القائمة على تكثيف الوصف عبر ذلك، فقد اقتربت استحضار صورة الحيوانات في قول الشاعرة (الكلاب) وما يدلُّ على النوق البيضاء الكريمة بما تتضافر مع الحالة الوجدانية التي تتكشّف عبرها مشاركة الشاعرة لهذه العناصر في ألفاظ الطبيعة المتحركة، وكثيراً ما تردّدت ألفاظ النوق والخيل والكلاب والأسود في شعر الإسلام، "فقد كانت عناية الشعراء بعناصر الطبيعة المتحركة من خلال تشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني"[32]، وقد وصف الشعراء أكثر الحيوانات التي عرفها العرب في صحرائهم الأليف منها والوحشي، ووقفوا وقفة تأمّل، وصوّروها بصور دقيقة لمكانتها عندهم "يقوم الشاعر بتحويل العناصر الطبيعية إلى رموز تبوح بما يختلج في صدره ومخيلته من المعاني الشعورية التي لا يمكن صبها في قالب الألفاظ الواضحة، إنَّ توظيف ما يوجد في الطبيعة في الشعر وإضفاء معان رمزية عليها هو دلالة على السعة النفسية عند الشاعر"[33].إنَّ ما تقدّمه الشاعرة ليلى الأخيلية يفسّر مدى الاهتمام بعلم التطور الدلالي في تلك الآونة، "يهتم علم الدلالة بكل ما يحمل معلومات فهو يهتم بالناس وعاداتهم الاجتماعية وطرق الاتصال القائمة بينهم والآلات أو الوسائل المستخدمة في ذلك"[34].فالشاعرة رصيد ثقافي لمجتمعها تظهر عبر جمالية الأداء الرمزي اللغوي لعناصر الوصف (الطبيعة) في إظهار ما كان يعتقده الشاعر تجاه الموجودات، فاللجوء إلى التشبيه البلاغي واضح في تطوير الصورة التعبيرية عند الشاعرة ، ومنه قولها في ذلك:

أَتَتْهُ المَنايا حِينَ تمَّ تَمامُهُ وأَقْصَرَ عنه كُلُّ قِرْنٍ يُطاوِلُهْ
وكانَ كليثِ الغابِ يَحْمي عَرِينَهُ وتَرْضَى بِهِ أَشْبالُهُ وجلائِلُهْ
غَضُوبٌ حَلِيمٌ حين يُطلَب حِلْمُهُ وسمٌّ زُعافٌ لا تُصابُ مَقاتِلُهْ[35]

وذلك إننا نلاحظ إنَّ الشاعرة تعطي في توظيف مفردات الطبيعة المتحركة ما يُناسب حالة الموصوف في شعرها ، فتأتي إلى أكثر الألفاظ دلالة على قوة البأس التي كان عليها (توبة) في تشبيهها وإياه في قولها (وكانَ كليثِ الغابِ)، وذلك كناية عن شجاعته وجسارته وعدم خوفه من أي شيء، لأنه قد عُرف عنه الحماية وصون من حوله، وكذلك تتوسع في ظلال هذه الصورة في قولها (وتَرْضَى بِهِ أَشْبالُهُ وجلائِلُهْ) أي أنَّ من تتحدث عنه استحق هذه الصفات عبر رمزية صورة الطبيعة المتحركة.وقد نجد تداخلاً للأساليب التعبيرية اللغوية مع ألفاظ الطبيعة في قولها :

يا عَيْنُ بكّي بدَمْعٍ دائمِ السَّجَمِ وابْكِي لتَوْبَةَ عِنْدَ الرَّوْعِ والبُهَمِ
ومُصْدِرٍ حين يُعْيِي القَوْمَ مُصدِرُهم وجَفْنَةٍ عند نحسِ الكوكبِ الشَّبِمِ[36]

تحفّز الشاعرة الألفاظ التي تعكس انتماء الألفاظ إلى الحقل الدلالى نفسه التي تنتمي إلى النجوم في التدليل على ما أرادته الشاعرة من إطلاق الدلالة في السياق، وفي قولها (وجَفْنَةٍ عند نحسِ الكوكبِ الشَّبِمِ) ما يشير إلى الصفة الواردة التي تتضافر مع جمالية الرثاء، حيث إنَّ التشكيل المعنوي لألفاظ (الكواكب) يتضافر مع السمو والرفعة والضياء التي تراه في المرثي، ولاسيما أنَّ الرثاء فيه تركيز على مناقب المتوفي وخصاله، "كانت النجوم والكواكب ومواقعها وطلوعها مشهد من مشاهد تصوير الشاعر لرحلته الشاقة"[37]

خاتمة ونتائج:

- يسمح البحث عن أشكال التطور الدلالي على معاينة الأداء اللغوي عند كل شاعرة في العصرين الجاهلي والإسلامي.
- إن ما ظهر عند شاعرات الجاهلية كما قدمن في نماذج لقصائدهن يفصح عن أهمية المعاني والألفاظ التي كانت ركيزة في العصر الجاهلي فيما يناسب المناسبات الكلامية.
- إنّ لطبيعة التشكيل الشعري عند شاعرات الإسلام كشف عن تطور ملامح الألفاظ وتخلصها من نبرتها الجاهلية نظراً لاختلاف طبيعة العصر.

المصادر والمراجع

١. التطور الدلالي في العربية الحديثة، محمد شندول.
٢. التطوّر الدلالي مظاهره وقضاياه، دراسة في مقاييس اللغة لابن فارس، عمار قلالة، عالم الكتب الحديث، ط١، الأردن، ٢٠١٦.
٣. دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٧٦.
٤. ديوان الخنساء، دار الأندلس للطباعة، ط٧، بيروت، ١٩٧٨.
٥. ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: واضح الصمد، ديوان صادر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣.

٦. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي.
٧. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، ط١، بيروت، ١٩٣٤.
٨. شعر الخنساء – دراسة فنية، سهام النجم، جامعة الكوفة، كلية الآداب، د. ت.
٩. شعراء العصر الأموي، فالح الكيلاني ، موسوعة شعراء العربية، مجلد ٣، د.ت.
١٠. الصوت والصورة في الشعر الجاهلي ، قراءة أسلوبية في شعر عبيد بن الأبرص ، طارق شلبي، ٢٠٠١ .
١١. علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل.
١٢. علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية، تاصيلية، نقدية، فايز الداية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ١٩٨٨.
١٣. علم الدلالة، أحمد عمر، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، عالم الكتب، ط١، القاهرة ، ١٩٨٥.
١٤. علم الدلالة، بير غيرو، ترجمة منذر عياشي.
١٥. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، ط٢، د. ت.
١٦. فقه اللغة، محمد المبارك، ط١، دمشق، ١٩٦٠.
١٧. في الأدب الأندلسي، جودت الركابي.
١٨. الكواكب والنجوم ودلالتها في الشعر الأموي، ديلم سهيل.
١٩. مدار الصحراء، دراسة في أدب عبد الرحمن منيف، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١.
٢٠. مدخل إلى علم الدلالة ، فتح الله سليمان، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ١٩٩١ .
٢١. المزهر، جلال الدين السيوطي.
٢٢. معجم الشعراء، المرزباني، مكتبة القدس، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٢.
٢٣. منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١١.
٢٤. نظرية الأدب في النقد التأثري العربي المعاصر، شايف عكاشة، ١٩٩٤.

هوامش البحث

[1] الشعر العربي المعاصر(قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية): عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي،ط٢، ١٩٩٥: ١٢٧.

[2] الشعر العربي المعاصر، المصدر السابق نفسه:١٣٠.

[3] ينظر: التطوّر الدلالي مظاهره وقضاياه، دراسة في مقاييس اللغة لابن فارس، عمار قلالة، عالم الكتب الحديث، ط١، الأردن، ٢٠١٦، ص ٢٨.

[4] منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١١، ص ٧٠.

[5] علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، دراسة تاريخية، تاصيلية، نقدية، فايز الداية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ١٩٨٨، ص ٢٨٩.

[6] علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، ص ٧١.

[7] فقه اللغة، محمد المبارك، ط١، دمشق، ١٩٦٠، ص ١٨٠.

[8] دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٢٣.

[9] علم الدلالة، أحمد عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٤٥.

[10] علم الدلالة، أحمد عمر، ص ٢٧٤.

[11] ينظر: شعر الخنساء – دراسة فنية، سهام النجم، جامعة الكوفة، كلية الآداب، د. ت، ص ٢٢٥.

[12] علم الدلالة، بير غيرو، ترجمة منذر عياشي ، ص ٩٩.

[13] ديوان الخنساء، دار الأندلس للطباعة، ط٧، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٢٥.

[14] مدخل إلى علم الدلالة ، فتح الله سليمان، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ١٩٩١ ، ص ٣٤.

[15] ديوان الخنساء، ص ٨٨.

[16] المزهر، جلال الدين السيوطي، ص ١/٣٥٩.

[17] ديوان الخنساء، ص ٨٩.

[18] شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، ط١، بيروت، ١٩٣٤، ص ٢٣-٢٤.

[19] ينظر: التطور الدلالي في العربية الحديثة، محمد شندول ، ص ٢٦٣ .

[20] شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، ص ٢٣.

[21] دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص ١٢٣.

[22] سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ص ٥/٢٧٢.

[23] العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، ط٢، د. ت، ص ١٣.

[24] الصوت والصورة في الشعر الجاهلي ، قراءة أسلوبية في شعر عبيد بن الأبرص ، طارق شلبي، ٢٠٠١ ، ص٢٠٢.

[25] العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، ص ١٣.

[26] الصوت والصورة في الشعر الجاهلي ، طارق شلبي، ص ١٥٤.

[27] معجم الشعراء، المرزباني، مكتبة القدس، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص ١/٢٣١.

[28] شعراء العصر الأموي، فالح الكيلاني ، موسوعة شعراء العربية، مجلد ٣، د.ت، ص ٤٨٥.

[29] ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: واضح الصمد، ديوان صادر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٥١.

[30] نظرية الأدب في النقد التأثري العربي المعاصر، شايف عكاشة، ١٩٩٤، ص ٨٥.

[31] ديوان ليلى الأخيلية، ص ٨٢.

[32] في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ص ١٣١.

[33] مدار الصحراء، دراسة في أدب عبد الرحمن منيف، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١، ص ٧٦.

[34] علم الدلالة، أحمد عمر، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، عالم الكتب، ط١، القاهرة ، ١٩٨٥، ص ١٦.

[35] ديوان ليلى الأخيلية، ص ٩٨.

[36] ديوان ليلى الأخيلية، ص ١١٥.

[37] الكواكب والنجوم ودلالتها في الشعر الأموي، ديلم سهيل، ص ٤٤١.